

سواءً من النظام أو من إيران أو من روسيا، بينما دفع هو ثمن موقفه الواضح من السعودية، وهذا يعني أن التحالف الذي كان يقف ناهض في مواجهته هو الأكثر خطورة على المثقف في هذه اللحظة، ما يجعل بالضرورة من أي وقوف معه وقوفاً مع القتل الدواعش وتسويعاً لأفعالهم في مواجهة خصومهم السياسيين. صحيح أن عملية القتل حصلت في الأردن وفي سياق قد يبدو داخلياً، لكنها تعبر بوضوح عن الميل المتعاطف لدى هذا الحلف إلى تدفيع المختلفين معه أثماناً باهظة، والأرجح أن من يقف معه الآن إنما يفعل ذلك ليحفظ رأسه، ولينفادي الثمن الذي دفعه ناهض طواعية حين اختار الوقوف في المعسكر الآخر.

* كاتب سوري

الاستعداد لدفع الثمن

أهمية ما فعله ناهض بالإضافة إلى التحليل المقترب بالموقف العضوي من الحلف الوهابي الذي تقوده السعودية وداعش وأقرانهما، هو أنه أعاد الاعتبار إلى قيمة الكتابة، ليس كإحسان إلى هذا الطرف أو ذلك، بل بوصفها فعلاً سياسياً وأيديولوجياً يندرج في سياق تاريخي. هذا السياق هو الإطار الذي تستطيع الكتابة من خلاله التحول إلى قوة مادية تؤثر في الواقع، وفي بعض الأحيان تصبح هي القاطرة له عبر الربط بين التنظير والفعل السياسي، حتى لو اختلفنا معه من موقع «سياسي» ما. في النهاية، لم يدفع أحد ممن اختلفوا مع الشهيد ناهض ثمناً لمواقفهم،

”
التحالف الذي
كان يقف
ناهض في
مواجهته
هو الأكثر
خطورة على
المثقف

“

وهو السيد ودون أن يدفع ثمناً حقيقياً. ولكن هل الاحتلال نجح في منع الانتفاضة الكانونية أو عواصف عام 2000؟ الجواب كلا.

وفي مؤتمر هرتسليبا الأخير 2015 الذي تشارك فيه النخبة العسكرية والأمنية والسياسية والثقافية والاقتصادية والإعلامية، تحدث صحفيون عن احتمال حرب عصابات جبلية أو انتفاضة أو تحركات شعبية، كذلك إن جبروت الاحتلال وما لديه من قوة تدميرية هائلة لم تستطع الحيلولة دون أن تتراكم عوامل القتال في قطاع غزة، ولم يثبت قدرة بالقضاء عليها.

2- السلطة الفلسطينية الملتزمة استحقاقات أوسلو والتي تناهض اشتعال الضفة. وهنا يمكن استدعاء الدرس التونسي والمصري، فنظاما بن علي ومبارك لم يقويا على منع الانتفاض الشعبي، وهذا حصل في غير بلد وتجربة، كإيران الشاه مثلاً.

كذلك فإن السلطة في مازق، فالمسار التفاوضي لم يثمر حلاً سياسياً أو ترتيبات على طريق الاستقلال، بما أثار جدلية داخل صفوفها، وهناك تيارات تقول بالعودة إلى خيار الشعب.

3- القطاعات جماهيرية. بالقروض والتفتت والثقافة الاستهلاكية والفردية، ولا سيما في الطبقة الوسطى التي أكثر من 20% في الضفة والقطاع ونحو 50% من قوة العمل في رام الله. لكن هذا كله يتظاهر في الهواء ما إن يشتعل الحريق، ذلك أن الوطنية الفلسطينية عميقة في الوجدان، مثلما هي حال أي وطنية أخرى، وكذا الاستعدادات المتنوعة، وأيضاً الطبقة العاملة التي أغلبها «طبقة في ذاتها وليس طبقة لذاتها» بحسب التعبير الماركسي، وهي أكثر من 20% من قوة العمل ونحو 35% في الحركة الأسيرة برغم عدم تركزها.

4- حالة الإحباط والارتخاء والفردية وعدم الثقة بالذات وقدرتها على التغيير، وما توالد عن مرحلة أوسلو من ثقافة غير تحررية وتراجع لثقافة الثورة. وهناك ديناميكية تفكيكية للشعب وتجمعاته وخلق ثقافات في أولوياته.

بكلمة واحدة، إن للثورة ثقافتها وقيمتها، ولاستراتيجية التفاوض ثقافتها وقيمتها، ومرحلة الصعود خصائصها، ومرحلة الجزر خصائص أخرى.

ولكن ما هي المحركات التي يمكن أن ترفع منسوب المواجهة الشعبية مع المحتل وولادة مرحلة جديدة؟

أولاً، يواجه الشعب الفلسطيني احتلالاً عنصرياً اقتلاعياً مع تطهير عرقي، كما تنص عليه خطة برافر في النقب، وكما يحصل في الأغوار، فضلاً عن ضم القدس بعد توسيعها وهدمها واستيطان قافز واعتقالات يومية وحجز للتطور وإذلال لا ينتهي، وهذا استولد وسوف يستولد إرادة لمواجهة.

فيما المشروع الوطني يتطلع إلى الحرية والتحرير ويقاوم ولم ينفك يقاوم ولم يستسلم منذ أن اقترح الاستعمار البريطاني الحكم الذاتي 1922 ووصولاً للحكم الذاتي الأوسلوي 1993. ثمة علاقة صراعية هي مصدر المواجهة بين المشروع التحرري



تحوله انتفاض «أوسلو» إلى مرحلة امتدت لأكثر من عقدين، ولم يقد إلى سلام ولا استسلام (أ ف ب)

”
إن الوضعية
المعطوبة
الحالية ليست
قدراً، والتاريخ
في حركة
دائمة

“

أزمة نظام بقدر ما هي أزمة مجتمع. ومع التدخل الدولي من روسيا وأميركا أضيف إلى أزمة النظام والمجتمع ارتباط المخارج الممكنة للحرب بإعادة صياغة النظام السياسي وفقاً للتوازنات الدولية، وهذا يعني افتقار الدولة التي كان ينشد ناهض الوصول إليها بمعنة الحسم العسكري إلى الاستقلالية السياسية، وتحولها إلى دولة تابعة لهذا المعسكر أو ذاك. هكذا، يعزل التحليل عن الواقع الجيوسياسي ويتحول رغم استعماله أدوات الجغرافيا السياسية إلى مجرد تسويخ لقوة هي في النهاية مجرد عنصر واحد. وإن كان فاعلاً جداً. من ضمن مجموعة عناصر تشكل الأزمة السورية، وتسهم من موقعها البنيوي في استمرارها.

استشهاده على خيار الحسم العسكري المقترب بتسوية سياسية بشروط السلطة تحفظ وجود الدولة ولا يكون فيها وجود فعلي للمعارضة السياسية السلمية، كانت وجهة النظر الأخرى تقول بأولوية التسوية على الحسم، في ظل مسار لا تكون الغلبة فيه لأحد ولا يستبعد منه أي طرف ممثل لهذه الشريحة أو تلك من السوريين، باستثناء الجماعات الإرهابية المرتبطة بالسعودية ودول الخليج. هذا لا ينفي قدرته الفائقة على قراءة المشهد، التي تبقى أفضل بكثير من سواها، ولكن القراءة حين تكون مقترنة بموقف لا يضع التسوية الكاملة والعدالة كأولوية تصبح عبئاً على صاحبها، ولا تساعد فضلاً عن ذلك في الوصول إلى مخارج فعلية للأزمة التي هي

الفلسطيني والمشروع الاحتلالي الإجلالي، قد ترتفع وتائرته أحياناً وتنخفض أحياناً أخرى، ولكنها لا تنطفئ إلا بانطفاء أسبابه، وصدقت نبوءة الشهيد عبد القادر الحسيني: «شعب فلسطين سيظل يثور جيلاً بعد جيل إلى أن تتحرر فلسطين».

ثانياً، كان الشعب الفلسطيني بعد 1967 مجرد ثلاثة أرباع مليون، أما اليوم فهو 5 ملايين، منهم 200 ألف طالب وطالبة في الجامعات، ومثلهم تقريباً في الحادي عشر والثاني عشر، ونحو مليوني شاب أعمارهم بين 16-36 سنة، وبطالة لا أفق لتشغيلها تناهز 400000 ألف، نحو نصفهم من متخرجي الجامعات والثانوية، واليوم هناك 1,5 مليون فلسطيني وراء الخط الأخضر، وأكثر من 6 ملايين في الشتات.

بما يختزله الشعب الفلسطيني من طاقات وتطلعات وإرث كفاحي وخبرات، الفلسطيني لم يتحول إلى «غبار الأرض» وسقطت مقولة «فلسطين أرض بلا شعب» بما يعكس مازقاً إسرائيلياً.

ثالثاً، لقد استنفدت المرحلة الراهنة نفسها، وهي تقرب من خط النهاية، فمرحلة أوسلو ووعودها بالاستقلال كشفت ماهيتها. ويفيد توسيع الأفق بإعطاء حيز أكبر في المرحلة المقبلة للجماهير الفلسطينية في 1948، فهؤلاء لا يتعرضون لتمييز عنصري فقط، فهم 18% من السكان، ومجرد 4% من الأرض و2% من المياه، و3% من الجامعات وبلا ميزانيات تطوير، ونسبة البطالة في صفوفهم مضاعفة، فيما نسبة أجورهم بالكاد تصل 60%.

ومن جهة أخرى، لقد صمد الشعب اللبناني وقاوتت مقاومته عام 2006 وتكبد الغزاة خسائر فادحة بعد أن فشلت الضربات الجوية المدمرة والاجتياح البري، وبرغم انشغال «حزب الله» في سوريا، فهناك جولات مقبلة على الجهة الشمالية، وما التدريبات الإسرائيلية سوى مقدمة وتهيئة.

يمكن توقع النموذج المستقبلي كولاية جديدة تتجاوز كل النماذج وتستفيد من كل النماذج، ولكن نخب المفاوضات ستستمر في نهجها، ونهج المقاومة سيستمر في نهجها، وهذا هو حال القوة الناعمة وغير الناعمة. أما الولاية الجديدة فسوف تصبح هي اللاعب الأول في الأعوام المقبلة، ويساعد على ذلك توصل الوضع الفلسطيني الحالي إلى قواسم ميدانية مشتركة.

إن الوضعية المعطوبة الحالية ليست دائمة وليست قدراً، فالتاريخ في حركة، والشيء يستولد نقبضه في نهاية الأمر، ولا سيما أن شروط اللحظة الراهنة في تاكل مستمر وتسكنها تناقضات وتطلعات واستعدادات. لقد تمرد قطاع غزة، وهو مجرد 6% من مساحة الضفة، وتمرد لبنان وهو بمساحة محافظة مصرية، ومن الخطأ إسقاط الرهان على الجماهير، على الكتلة التاريخية التقدمية بلغة غرامشي والثقافة التقدمية التي تنتج روابط الكتلة.

ويمكن تخيل النموذج المقبل الذي قد يمر في محطات وحلقات وسيطة. لقد استنفد المشروع القطري، والوضع الفلسطيني مأزوم ومستباح، وهذا يمهد لما هو جديد.

*أستاذ جامعي - فلسطين

في زمانه، مهزوزة. أما في الضفة، فالوضع مرتخ إجمالاً مع نقطة ساخنة في القدس ومبادرات ثلاثية شبابية ومصادمات شعبية محدودة، وسلطة تقبض على الوضع في الضفة وتضبطه بما يكرس وجودها والتزاماتها السياسية والأمنية.

ماذا عن الغد؟ تقوم هذه المقاربة على احتمالية نهوض وطني/ انفجار شعبي/ ولادة مرحلة جديدة تتجاوز المشهد الحالي والكثير من القوى والقيادات وثقافة الإحباط والانتظار والرخاوة، وسوف يتجاوز الجيل الجديد والقيادات الجديدة كل ما هو سائخ. وكما كانت ولادة الفصائلية الفدائية بعد هزيمة 1967 تتجاوزها لما سبقها فسوف تتجاوز المرحلة الجديدة ما سبقها، بحيث يستعصي التناقض، ولا يكون من فكاك له إلا برحيل الاحتلال، وعودة الأمور إلى طبيعتها الحقيقية.

ولكن ما هي العوامل التي تحرض وتفض لهذا الاستخلاق، وما هي العوامل المحبطة له؟

مفهوم أن البشر يصنعون مستقبلهم في نهاية الأمر... أما العوامل المعوقة فهي: 1- بطش الاحتلال وإجراءاته اليومية. فالاحتلال مرتاح من الوضعية القائمة، فهو «احتلال خمس نجوم» يسرق المياه والأرض،

الفلسطينية، ولا سيما انتصار وتحرير الجنوب اللبناني عام 2000 وفشل العدوان الإسرائيلي عام 2006 وما يمكن أن ينتج من سقوط المخطط المعادي في سوريا.

فلسطينياً، تعتمد القيادة الرسمية الآن الخيار القانوني بالتوجه إلى الأمم المتحدة ومنظمتها، وهذا وإن كان صحيحاً إلا أنه لا يطرده احتلالاً ولا يوقف استيطاناً، ومازق قيادة السلطة هو أن الحكومات الإسرائيلية لا تبحث عن تسوية جذرية أو حل وسط. وبرنامج «الليكود» صريح: «سيادة واحدة من البحر للنهر»، وهناك أحزاب أكثر يمينية، وبالتالي ليس هناك ما يسمى بتسوية بالطرق التفاوضية تنهي عوامل الصراع، ولا حل استسلامياً يرفضه الشعب الفلسطيني المستباح على كل الصعد. وقد تعرضت الضفة لاجتياح، وتعرض قطاع غزة لثلاثة عدوانات مدمرة، كذلك استمر الحصار التجويي وإغلاق نحو 2000 نفق كانت تغطي 70% من احتياجات القطاع.

ويمكن القول إن ثمة نهج مقاومة بأشكالها ونهج مساومة بأشكالها، وإن تميزت قوى في النهج الأول، فهي أيضاً تتقاطع جزئياً مع قوى في النهج الثاني، والعكس صحيح. وقد أعلن رئيس الأركان الاحتلالي أن أكبر خطر يهدد إسرائيل هو تاكل قوة الردع الإسرائيلية، وبالتالي باتت مقولة «الجيش الذي لا يقهر» التي استخدمها أيضاً نابليون